

كان يتكلم في تليفون الدُّكَان بصوت مُرتفع، وجعل يميل بنصفه الأعلى داخل الدُّكَان ليبتعد ما أمكن عن الضوضاء، طويلاً القامة نحيلها وروي الجبهة والعينين. مُكَوِّر الذقن وأما صلعته فلم يبقِ فوق مرآتها إلا جذور شعر أبيض مثل منابت شعر ذقنه، علي ذلك كان يتمتع بحيوية مرحة وتلتمع عيناه بنشاط وابتهاج. وبدأ أنه ينظر إلى الداخل لا إلى الطريق ثم مال يُمنة بمحاذاة صف من اللوريَّات الواقفة نسق التوار حتى وجد منفذًا إلى الشارع، وما كاد يجاوز مُقدمة اللوري الأخير حتى شعر بسيارة فورد تندفع نحوه بسرعة فائقة. وقال أحد الشهود فيما بعد إنه كان عليه أن يتراجع بسرعة وإنه لو فعل ذلك لنجا رغم سرعة السيارة، نَدَّت عن الرجل صرخة كالعواء وفي ذات الوقت انطلقت صرخات الفزع من المارة الواقفين على التوار، حتى تكون منهم سور غليظ منيع وانتشر في المنطقة المهرج، الرجل وهو يرتفع في الفضاء امتاراً ثم يهوي فوق الأرض كشيءٍ، وبسرعة وبدون أن ينظر إلى يساره كما يجب، وإذا لم يجد وجهها مستجيباً عاد ليقول بلهجة خطابية: "لم يكن بإمكانني تفادي الصدمة". خطوات فقط وعينهم لا تتحول عن الرجل ولا تخفي حدة تطلعها وإشفاقها وقال إنسان: "سيبقي هكذا حتى يموت ونحن لا نفعل شيئاً" وبوليس النجدة والإسعاف في الطريق إليه" واعترض الحادث جانب الطريق واضطربت السيارات إلى الإلتفاف حول السور البشري مشاركة الترام في مشاة. فضاق بها حتى تحركت في بطيء شديد وتجمعت في صفوف ممتدة ومتدخلة وهي تصرخ وتعوي بلا فائدة، ومن ركبها تطلع أعين إلى الضحية في اهتمام وأعين تجنبت النظر في جذع. وجاء بوليس النجدة وراء صفارته الحلوונית فاتسعت الحلقة وغادرت القوة السيارة إلى الرجل الملقي وكان الضابط حاسماً وحازماً، فأصدر أمراً بتفريق المتجمعين، وإذا لم تكن ثمة ضرورة إلى السؤال فإنه لم يلق بالاً إلى الجواب، فتقدم ماسح أحذية وسائق لوري وصبي كبابجي كان عائداً بصينية فارغة، وأعادوا على مسمع الضابط ما حدث منذ ما كان الرجل المجهول يتكلم في التليفون. وجاءت سيارة الإسعاف وأحاط رجالها بالرجل، وتحمس رئيسهم بعنابة وحضر وهو يجلس القرفصاء، ثم نهض متوجهاً إلى الضابط فباره هذا قائلاً: "أظن يجب نقله إلى الإسعاف"، وعندما أُرْقِدَ الرجل بحجرة الفحص في مستشفى الدمرداش، "عملية!" فهز رأسه قائلاً: "إنه يحتضر!" وجاء ضابط النقطة والراجل ما يزال راقداً بكمال ملابسه، وقال الطبيب: "هذه الحوادث لا تنتهي"، وشرع في عمله على حين يسط له الشاويش المرافق له ورقة فوق منضدة، وألقي نظرة عابرة على أسماء الأدوية، ولما لم يجد شيئاً آخر في الحافظة قال بضيق: "لا توجد بطاقة تحقيق شخصية"، فأمل أن يصادف فيها ما يستطيع أن يستدلي به على شخصية الرجل. فعاد إلى رأس الصفحة ولكن الرسالة كانت موجهة "إلى أخي العزيز أダメ الله" فاستاء من هذه المعاندة ولم يجد بدعاً من قرائتها. وامتد بصره فوق الوجه الأسطر إلى الوجه الباهت المشئوب بزرقة مخيفة المغلق كسر، ذلك الذي تحقق له أكبر أمل في الحياة وتسائل الطبيب عثرت على شيء؟ ازاحت جميماً والحمد لله، وكلما ذكرت الماضي بمتاعبه وكده وشقائه أَهْمَدَ اللهَ المَنَانَ، الذي يثير الدهشة بصمته وانعزاليه وارتداده العميق إلى المجهول،